B. تطور كل من البلدان الحضرية وتوسعها.
مصر وبلاد ما بين النهرين وفينيقيا
من العام ٢٩٠٠ الى العام ٢٤٠٠

I. أمبراطورية ممفيس المصرية القديمة

٢٨٩٥ ـ ٢٣٩٠

١ ـ الأمبراطورية القديمة تخلف الملكية الثينيسية

إثر عملية التوحيد الأولى للوادي والدلتا التي قام بها مينيس (٣٣١٥) فإن السلالتين الأولى والثانية اللتين تكوّنان الحقبة أو الأمبراطورية الثينيسية حكمتا فترة تـزيد عن أربعـة قرون من العـام ٣٣١٥ تقريبـاً وحتى مجيء السـلالـة الثـالثـة والأمبراطورية الممفيسية القديمة حوالي العام ٢٨٩٥.

وكان الملك خاسيخيموي، آخر ملك لثينيس قد خلفه زيسر (العام ٢٨٩٥) الذي قد يكون ابنه. وبالرغم من هذه البنوة الفعلية أو المحتملة فإن المؤرخ مانيتون يجعل من تولي هذا الأمير سدة الحكم نقطة بدء المرحلة الثانية من التاريخ المصري، وهي مرحلة الأمبراطورية القديمة أو أمبراطورية ممفيس. وخلال هذه الحقبة الثانية فإن أربع سلالات، السلالة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة تعاقبت خلال ما يقارب خمسة قرون.

إن تاريخ الأمبراطورية المصرية القديمة أو امبراطورية ممفيس ما يزال غامضاً للغاية. في حين، وبفضل وفرة الوثائق والآثار المنبوشة أو التي عثر عليها، يمكننا أن نُعدّ وصفاً الى حد ما كاملاً، للحضارة المادية التي كانت في وادي النيل خلال الألف الثالث إلا أنه وخلال تلك الفترة نفسها من الوقت فإن الحياة والتطور في مصر من وجهة النشاط السياسي والعسكري والاداري والاجتماعي لا تزال مجهولة تماماً. بالرغم من هذا فإن الأطر العامة تظهر، مما يتيح لنا تحديد موقع الأحداث الكبرى المعروفة وترتيبها وأن نلم بالأسباب التاريخية التي أدت اليها.

إن الحقبة الممفيسية التي يعرف المعاصرون القليل عنها كانت في نظر مصريي عهد الانحطاط عصراً ذهبياً وفترة سلام واستقرار وازدهار مثلى. فخلال أكثر من خمسماية سنة بلغت مصر تحت حكم سلسلة من الملوك الحكماء والأقوياء درجة عالية من التطور في جميع الميادين. وهذه الحقبة المزدهرة ستنتهي بعد العام ٢٤٠٠ بسقوط مفاجيء، تليه فترة وسيطة دامت اكثر من قرنين ملأى بالنزاعات الداخلية والمنافسات الإقطاعية، وقد جرى الإعداد خلالها لقيام مرحلة أخرى من الوحدة تمثلت بالأمبراطورية الوسطى الطيبية نسبة الى طيبة وهي مدينة في مصر.

أ ـ أسباب تغيير النظام.

لا أحد يمكنه تحديد الأسباب التي حدت مانيتون وجميع المؤرخين الذين جاؤوا من بعده ليجعلوا من زيسر مؤسس سلالة جديدة: هي السلالة الثالثة وليعتبروا مجيئه إلى الحكم بمثابة حقبة جديدة: الأمبراطورية القديمة.

مع أنه لم يكن هناك أي إنقطاع بين السلالة الثانية الثينيسية والسلالة الثالثة الممفيسية، كما أنه لم يقم أي انفصال بين هاتين الملكيتين.

إن السلالة الثينيسية الثانية والأخيرة، على ما نعلم، لم تغرق في الانحطاط أو الثورة ولا الغزو بل على العكس من ذلك فإن خاسيخيموي، آخر ملوك هذه السلالة هو شخصية كبيرة لا تقل شهرته عن شهرة مينيس الكبير. ومن جهة أخرى فإن زيسر الملك الأول ومؤسس السلالة الثالثة الممفيسية ليس مغتصباً كونه كما يعتقد إبناً أو على الأقل الوريث الشرعي لخاسيخيموي والذي خلفه من غير مشاكل.

وإذا كانت مصر تحت حكم زيسر قد أحرزت بلا ريب تقدماً كبيراً في كل الميادين وبدأت عصراً كبيراً من تاريخها فقد شهدت عهداً مماثلاً تحت حكم أبيه وسلفه خاسيخيموي. فتحت حكم هذا الأخير كان التنظيم والحضارة اللذان سيشكلان عظمة مملكة ممفيس قد بلغا درجة متقدمة جداً. كما أن الأعمال المعمارية والفنية في عهد السلالة الثالثة ليست بنت نشأة عفوية وإنما هي إمتداد للتطور الذي تقع نقطة إنطلاقه في عهد السلالة الثانية. فخلال آخر أيام العهد الثينيسي وهي تلك الأزمنة

المتصلة بعهد زيسر نشهد ولادة وتطور تنظيم السلطة السياسية وإختراع الكتابة، وكان ذلك خطوة هامة على طريق الحضارة.

على ان العمل الأهم الذي أُنجز في عهد زيسر والذي يعادل بأهميته تغييراً في النظام ويبرر بحسب عدد من المؤرخين قيام سلالة جديدة ومرحلة مميزة، هو إنتقال المركز السياسي لملكية قسمي مصر رسمياً من الجنوب الى الشمال، أي من ثينيس أو عبيدوس إلى ممفيس.

ومما يذكر أن مينيس من غير أن يلجأ إلى إلغاء العواصم التقليدية ولا مقر الملكية في الجنوب سبق أن جعل من ممفيس نوعاً من العاصمة الإدارية. غير أنها تحت حكم مينيس وخلفائه إستحالت إلى عاصمة بالإسم أو رمزية. فبحكم وجودها في موقع تتوازن فيه مصر الإثنتان، إذ ان ممفيس ميزان البلدين، وهي أُنشئت على الأرجح لإرضاء إنفصاليي الدلتا، يظهر أنها لم تستخدم إلا لشعائر التتويج. ففيها في الواقع كان مينيس وخلفاؤه «يتولون عرشي الجنوب والشمال ويمسحون بالزيت المقدس ويتسلمون مهمتهم الملكية الكبرى (موريه).

إلا أنه من المؤكد أن آخر الملوك الثينيسيين كانوا قد إستقروا من جديد في عبيدوس مدينة الجنوب المقدسة التي جعلوا منها عاصمتهم. لكن العاصمة الحقيقية يبدو أنها عادت ثينيس في جوار العواصم الأولى لمصر وعند تلاقي طرق الجزيرة العربية والواحات الليبية.

ب ـ أسباب إستبدال العاصمة

إن التحرك نحو الشمال الذي كانت مبادرته تحت حكم الملوك الثينيسيين الأول أدى إذن، وتحت حكم زيسر إلى توطيد إقامة الملوك نهائياً في ممفيس. ولأنها تقع على الحدود الجنوبية للدلتا فإن مدينة ممفيس الأكثر شمالية منها جنوبية غدت مذ ذاك العاصمة الرسمية والفعلية للمملكة الموحدة. ومن هنا جاء اسم الأمبراطورية الممفيسية الذي يطلق أحياناً على الأمبراطورية القديمة.

إن وثائق ذلك العصر لا تقول لنا شيئاً عن الأسباب التي أدت إلى نقل العاصمة. غير أننا نعرف أن مصر الموحدة شهدت تحت حكم آخر سلالة ثينيسية

خطراً عظيماً كاد يقضي على وحدتها. وهذا الخطر أثاره «رد فعل قوي من جانب الشماليين المدعومين من الليبيين والأسيويين. فالإنشقاقات السياسية غذتها الأحقاد الدينية الدائمة التي كانت تجبه عبدة سيت الجنوبي بعبدة حورس الشمالي»[1].

وإلى ذلك فثمة وثائق اخرى تظهر لنا أنه وقبل العام ٣٠٠٠ كانت تخرج حملات تأديبية يرسلها الملوك الثينيسيون إلى شرق الدلتا الشرقية وسيناء ضد البدو المحليين.

ولكن وحوالي العام ٢٩٠٠ لم تسجل أية فتنة في الشمال كما لم توجه أية حملة إلى سيناء تبرر إنتقال مركز الأمبراطورية نحو الدلتا. فهل يجب البحث عن سبب النقل هذا في ظروف خارجية؟

إذا إجتزنا الحدود الشرقية للدلتا نلاحظ أنه وحوالي العام ٢٩٠٠، كما رأينا، كانت الموجة السامية الكنعانية في أوج تدفقها وقد غطت عند أبواب الدلتا الشاطىء الفلسطيني الجنوبي حيث كان كنعانيون وفينيقيون عتيدون، قد أسسوا مدن غزة وعسقلان وأشدود ومجدو. في تلك السنة بالذات (٢٨٩٥) قامت مصر بنقل عاصمتها نحو الشمال وسجلت في إطار مؤسساتها مرحلة جديدة من مراحل تاريخها الطويل والمتألق.

إن هذين الحدثين متزامنان ومتقاربان إلى حد يصعب معه تجاهل وجود علاقة وثيقة بينهما. ومن جهة أخرى فإن تنقلات الشعوب في فلسطين كانت ترافقها دوماً في مصر ردود فعل أو إنعكاسات.

ونحن نعلم اليوم أن الأمبراطورية الممفيسية وبعد فترة ٥٠٠ سنة تقريباً إنهارت بسبب الفوضى الداخلية والغزو السامي الأموري الذي تدفق حوالي العام ٢٤٠٠ إلى فلسطين ولبنان وبلاد ما بين النهرين كما دخلت موجة منه إلى الدلتا وأقامت فيها سلسلة من الملوك الأجانب أسسوا السلالة الثامنة.

وإذا كانت المعطيات التاريخية الحالية لا تسمح لنا باستكشاف آثار تسلل سامي ـ كنعاني إلى الدلتا حوالي العام ٢٩٠٠ فمرد ذلك إلى تلك الآثار التي لا تزال مطمورة أو أن الساميين ـ الكنعانيين وكما فعل لاحقاً شعوب البحر (حوالي ١٢٠٠) نجحوا في زعزعة التحصينات في الحدود الشرقية من غير أن ينجحوا في إجتياز

1 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 193.